العدد ١٨ آب ٢٠٢٥
المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية
No. 18 – Ang 2025 Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN2790-1254

التعليل التداولي للقراءات القرآنية الفرشية في سورة البقرة

م. د علي عبد الحسين حسن
المديرية العامة لتربية بغداد/ الرصافة ٢
رقم الهاتف ٠٧٧٠٥٥٦١٧٣٧

Pragmatic Reasoning for the Farshiyah Qur'anic Readings in Surat Al-Baqarah

Assistant Professor Ali Abdul-Hussein Hassan
General Directorate of Education, Baghdad/Rusafa 2
Telephone Number: 07705561737
Aabdulhussein28@gmail.com

الملخص:

يسعى الباحث إلى توظيف مخرجات الدراسة التداولية وجعلها في خدمة النص القرانـي؛ حيث يرى إمكانية تقديم تعليل آخر يختلف عن التعليلات البلاغية والنحوية للقراءات القرآنية الفرشية، ويعتمد التعليل في هذا السياق بشكل رئيس على الرؤية التداولية، حيث ينطلق البحث من فرضية مفادها أنّ اختلاف القراءات ليس مجرد تنوع في الأداء واللفظ، بل يحمل جنبة تداولية، فتعبر كلّ قراءة عن جانب معين من جوانب الخطاب، وما يرافقه من ملابسات وما يحيط به من ظروف، فتكون القراءة مقبولة إذا ما أطرت بذلك الإطار التداولي ووضعت ضمن سياق مختلف ومقام متباين عن القراءات الأخرى؛ فإذا كانت هذه القراءة تنقل لنا زاوية نظر المتكلم، نقلت لنا القراءات الأخرى منظور المخاطَب أو شرطًا جوهريًا من شروط موفقية الفعل الكلامي أو نجاحه، أو حكت لنا ظرفًا من ظروف المقام، أو أبانت عن مقصود آخر من مقاصد المتكلم. وعليه يحاول هذا البحث أن يثبت أنَّ بعض القراءات يمكن فهمها أو تفسيرها في ضوء المقاصد التداولية.

كلمات مفتاحية: (التداولية، القراءات، فرش الحروف).

Abstract

The researcher aims to employ the outcomes of the pragmatic study and make it in the services of Qur'nic text, the researcher attempts to present another justification different from the rhetorical and grammatical various in the Qur’anic al-Farsh readings. This justification in this context mostly depends on the pragmatic vision. The study is based on the hypothesis that reading differences are not only recitation and pronunciation variations but imply a pragmatic aspect where each reading expresses a particular aspect of the discourse alongside the circumstances that accompany it and the conditions that surround it where the reading is considered acceptable when shaped within this pragmatic framework and distinct from the other contextual settings from the other readings if this

reading is reflected from the speaker's point of view, other readings convey the addressee's perspective, or an essential condition for the success of a speech act, or they recount a circumstance of the situation, or they reveal another of the speaker's intentions. Accordingly, this research attempts to prove that some readings can be understood or interpreted in light of pragmatic intentions.

Keywords: Pragmatics, Readings, Farsh Letters.

المقدمة:

تمثل القراءات القرآنية ظاهرة لغوية وبيانية فريدة، عني بها العلماء قديمًا وحديثًا؛ لما فيها من تعدد في الأداء وتنوع في الصيغ. وقد قسمت القراءات بحسب انضباطها من عدمه إلى أصول وفرش. لقد تناولت الدراسات التفسيرية واللغوية هذه القراءات –غالبًا- من منظور نحوي أو صرفي أو عقدي، فركزت على صحة القراءة أو وجوه الإعراب أو دلالة الألفاظ، من دون أن تلتفت بشكل كافٍ إلى البعد التداولي الذي يكشف عن مقاصد الخطاب، وعلاقته بالمخاطبين، وسياقه الزماني والمكاني والنفسي، ومن هنا تبرز الحاجة إلى قراءة تداولية للقراءات القرآنية، تتجاوز فيها ظاهر اللفظ إلى وظيفته في التواصل القرآني فتعنى بالفعل الكلامي وحال المتلقي وظروف الخطاب ونجاعة الأثر.

ينطلق البحث من فرضية مؤداها أن القراءات الفرشية في سورة البقرة لم تأتِ عبثًا، بل نهضت بوظائف تداولية، تمثلت في ثلاثة أبعاد مترابطة هي: نقل ظروف الخطاب وأحوال المخاطبين وتغيير إنجازية الفعل الكلامي، وتوسيع دائرة الخطاب لتشمل شرائح وأزمنة متعددة. وتعدُّ سورة البقرة أنموذجًا مثاليًا لهذا التحليل؛ لما تحتويه من تنوع في الخطاب والمخاطب والمقاصد. جدير بالذكر أنّ البحث لم يتناول جميع القراءات القرآنية في السورة، بل اختص بدراسة القراءات الفرشية التي قرأ بها القرّاء السبعة والواردة في سورة البقرة، مهملًا منها ما كان مبنيًا على ظواهر صوتية كتحقيق الهمزة أو تخفيفها أو الخلاف بين التشديد والتخفيف كقراءة (تظّاهرون) و(تظاهرون)، وقلب السين صادًا والصاد سينا (سراط وصراط)؛ إذ لا تؤثر هذه القراءات في بنية الخطاب أو وظيفته التواصلية.

ويسلك البحث منهجًا تحليلًا تداوليًا، يستقري فيه مواضع القراءات الفرشية في السورة ويحللها في ضوء المفاهيم والمسارات التداولية المناسبة. وقد تمّ تقسيمه على ثلاثة مباحث، يعالج كلّ منها وظيفة تداولية محددة من وظائف هذه القراءات ليخلص إلى أنَّ القراءات تتعاضد لخدمة المقاصد القرآنية.

تمهيد تعريفي:

تعنى التداولية بالمعنى كما يُفهم في الاستعمال، لا كما تفترضه البنى اللغوية وحدها، وقد كان أقدم تعريف للتداولية ما قدمه (موريس) الذي عرفها بأنَّها ((جزء من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات))[١]، في حين يعرّفها (يول) بأنَّها ((دراسة المعنى الذي يقصده المتكلم في السياق))[٢]، فالتداولية، باختصار، تعنى بدراسة كيفية إنتاج اللغة لمعناها الفعلي عن طريق تفاعلها مع السياق الذي ترد فيه، وتهتم بملاءمة النصّ للمتلقي وظروف التواصل وشروطه، متجاوزة المعنى اللغوي إلى المعنى المقصود في المقام المحدد. وتنطلق التداولية في دراستها للخطاب من هذه الأسئلة: (من المتكلم؟

[١] – المقاربة التداولية : ٨ ، وينظر : القاموس الموسوعي للتداولية:٤٠، والتداولية : ٢٠ .

[٢] – التداولية: ١٩ .

إلى من يتكلم؟ ولأجل ماذا يتكلم؟ ما الإطار الزماني والمكاني الذي يدور فيه الكلام)، ولا يمكن الإجابة عن تلك الأسئلة من دون استحضار مجموعة من المعطيات من أبرزها: (التركيز على مستعملي اللغة والسياق، دراسة معاني الخطاب وعلاقتها بالمتكلم، استحضار الشروط التي تجعل المقولات ناجحة ومناسبة انجازيًا، دراسة الاستلزام الحواري وكيف يتجاوز المقصود معنى القول)[٣]. وانطلاقًا من هذا الفهم تسعى هذه الدراسة إلى تعليل القراءات القرآنية الفرشية عن طريق ما تضفيه كلّ قراءة من أثر تداولي في المقام القرآني.

أما القراءة فتعرَّف في الاصطلاح : بأنَّها ((اختلاف ألفاظ الوحي المذكورة في كتابة الحروف أو كيفيتها من تخفيف وتثقيل وغيرهما))[٤]، ويلاحظ على هذا التعريف أنَّه يقتصر في القراءات على ما هو مختلف فيها، في حين يرى آخرون أن القراءات هي : ((علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة))[٥]، وتعرف أيضاً بأنَّها ((علم يعلم منه اتفاق الناقلين لكتاب الله تعالى واختلافهم في الحذف والإثبات والتحريك والتسكين والفصل والوصل وغير ذلك من هيئة النطق والإبدال وغيره، من حيث السماع، أو يقال: علم بكيفية أداء كلمات القرآن، واختلافها معزواً لناقله))[٦]، فأصحاب هذا الرأي يوسعون دائرة القراءات لتشمل الكلمات القرآنية كلها معزوة إلى ناقليها. أما القراءات الفرشية فمأخوذة من ((الفرش: مصدر فرش إذا نشر وبسط، فالفرش معناه النشر والبسط، والحروف جمع حرف والحرف القراءة ... وسمي الكلام على كلّ حرف في موضعه من الحروف المختلف فيها بين القرّاء فرشًا لانتشار هذه الحروف في مواضعها من سور القرآن الكريم فكأنها انفرشت في السور بخلاف الأصول فإنَّ حكم الواحد منها ينسحب على الجميع))[٧]، وعلى هذا فالقراءات الفرشية هي اختلاف القرّاء في كيفية أداء كلمات القرآن الكريم مما لا يخضع لضابطة معينة ولا يعمم بقاعدة مطردة.

مسارات التداولية: يقصد بمسارات التداولية الاتجاهات والفروع الكبرى التي نشأت في أحضان الدرس التداولي بوصفه حقلًا لسانيًا واسعًا، ولكلّ مسار اهتمامه الخاص وأدواته التحليلية المختلفة، وأشهر تلك المسارات هي:

السياق: يطلق السياق للإشارة إلى مفهومين هما: السياق اللغوي ويقصد به الأجزاء الحافة بالكلمة التي تسهم في الكشف عن معناها. والآخر: السياق غير اللغوي أو سياق الحال أو الموقف ويقصد به مجموعة الظروف المرافقة لفعل التلفظ[٨]. والسياق، في المنظور التداولي، يشير إلى جميع العوامل المكانية والزمانية والاجتماعية والثقافية المؤثرة على اللغة المستعملة في التواصل، ويشمل السياق أيضًا الحالة الذهنية للمتكلم ونواياه ونوايا المخاطب وتوقعاته، أضف إلى ذلك طبيعة العلاقة بين المتكلم والمخاطب[٩]، وعلى هذا الأساس يكون السياق أكثر من مجرد الإطار الذي يقال فيه الكلام، بل هو المفتاح لفهم

---

[٣] – ينظر : المقاربة التداولية: ٧، والتداولية والشعر : ٢٦ .

[٤] – البرهان : ١/ ٣١٨ .

[٥] – منجد المقرئين : ٩ .

[٦] – اتحاف فضلاء البشر : ٦ .

[٧] – الوافي في شرح الشاطبية : ١٩٩ .

[٨] – ينظر: استراتيجيات الخطاب: ٤٠ – ٤١ .

[٩] – ينظر: استراتيجيات الخطاب: ٤٠ – ٤١ ، والسياق وأثره في المعنى: ١٥، وسياق الحال في الفعل الكلامي "مقاربة تداولية": ٢٩.

الاستعمالات اللغوية في التواصل والمؤثر الأبرز في تفسيرها وإدراك المعاني الضمنية التي تصاحبها، وعملية الفهم والإفهام لا تتمّ إلا بالاتكاء على السياق ومعرفة تأثيره في الخطاب المنجز[١٠].

نظرية أفعال الكلام: تعدد نظرية أفعال الكلام من أهم الأسس التي بنيت عليها التداولية، ومؤسسها الفيلسوف الإنكليزي (جون أوستن)[١١]، والفكرة المركزية لهذه النظرية تقوم على أنَّ وظيفة اللغة لا تقتصر على وصف العالم وصفًا إما أن يكون صادقًا، في حال المطابقة، وإما أن يكون كاذبًا في حال المخالفة[١٢]، وبيَّن أنَّ هناك مقولات تشبه المقولات الخبرية، ولكنها لا تقصد الإخبار وأطلق عليها اسم (الإنجازيات)، ويعدُّ النطق بهذه المقولات إنجازاً لفعل أو عمل ما[١٣]. وانتهى (أوستن) إلى أنَّ القول مكوّن من ثلاثة أفعال تؤدّى في الوقت الذي يُنطق فيه بالمقولات، وهذه الأفعال وهي:

الفعل اللفظي (locutionary act): ويتمثّل في التلفّظ بجمل مفيدة ذات بناء نحوي صحيح، ينتج عنه المعنى الأصلي المفهوم من التركيب، وله مرجع يُحيل عليه[١٤].

الفعل الإنجازي (illocutionary act) : ((ويُقصدُ به ما يؤديه الفعل اللفظي من وظيفة في الاستعمال مثل الوعد، والتحذير، والأمر، والنصح)) [١٥].

الفعل التأثيري (perlocutionary act) : ((ويقصد به الأثر الذي يُحدثه الفعل الإنجازي في السامع أو المخاطب سواءٌ أكان تأثيرًا جسديًا أم فكريًا أم شعوريًا))[١٦].

وفي إطار آخر ميَّز (أوستين) بين أنواع الأفعال الكلامية، جاعلًا من قوتها الإنجازية أساسًا في التقسيم، وهذه الأفعال هي: (الحكميات، الإنفاذيات، الوعديات، التبيينيات، السلوكيات)[١٧].

ولكنَّ هذه النظرية لم تبق عند حدود ما رسمه (أوستين)؛ إذ جاء بعده تلميذه (سيرل) محاولًا تطوير النظرية وسدَّ فجواتها، ولعلَّ أهم ما أدخله (سيرل) على نظرية أفعال الكلام يكمن في إعادة تصنيف أفعال الكلام معتمداً ثلاثة أسس منهجية هي: (الغاية المتضمنة في القول، واتجاه المطابقة، وشروط الإخلاص) [١٨]، محددًا خمسة أنواع من الأفعال الإنجازية هي: (الإخباريات، التوجيهيات، الإلزاميات، التعبيريات، الايقاعيات) [١٩]. وتأتي أهمية هذه النظرية من دورها في بيان مقاصد المتكلم، وكشفها عن كيفية استخدام

---

١٠ – ينظر : استراتيجيات الخطاب : ٢٣ .

١١ – ينظر: محاضرات في فلسفة اللغة: ١٠٣.

١٢ – ينظر : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر : ٦٢ – ٦٣، والأبعاد التداولية عند الأصوليين "مدرسة النجف الحديثة أنموذجاً" : ٤٨ .

١٣ – ينظر: نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب:٤، ونظرية الفعل الكلامي: ٤٠.

١٤ – ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٦٨.

١٥ – آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٦٨.

١٦ – آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٦٨.

١٧ – ينظر: نظرية الأفعال الكلامية "بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب" : ١٠ – ١١، وآفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٤٦ ، ومحاضرات في فلسفة اللغة : ١١١ – ١١٢.

١٨ – ينظر : العقل واللغة والمجتمع: ١٨٢.

١٩ – ينظر : العقل واللغة والمجتمع : ١٨٣– ١٨٤، والتداولية من أوستن إلى غوفمان : ٦٦، ونظرية الأفعال الكلامية "بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب" : ٣٠– ٣١.

الألفاظ لأداء وظائف اجماعية داخل السياق، وتعدُّ أداة مركزية في تحليل القراءات القرآنية، حيث تأتي الفروق القرائية لتعبر عن اختلاف في الفعل الكلامي المنجز، كما سيتضح في ثنايا البحث.

القصدية: تعد القصدية من أبرز مسارات البحث التداولي وأهمها، بل هي الغاية التي تسعى وراءها التداولية، فالتداولية تبحث عن الإمساك بمقاصد منتج الخطاب وما يعنيه بقوله أكثر من عنايتها بمدلولات البنية اللغوية. وعلى هذا تشكل القصدية جوهر الفعل الكلامي؛ إذ إنَّ إدراك المعنى لا يستقيم من دون إدراك مقاصد المتكلم في السياق التواصلي المحدد[٢٠]، فالمعنى، على وفق الرؤية التداولية، ليس مكونًا نفسيًا، بل دلالة يستدل عليها من النص والسياق معًا[٢١]. ومن منظور التداولي يميز بين نوعين من أنواع القصد هما: القصد الإخباري وهو ((ما يقصد إليه المتكلم من حمل لمخاطبه على معرفة معينة))[٢٢]، والآخر القصد التواصلي وهو ((ما يقصد إليه المتكلم من حمل لمخاطبه على معرفة معينة. هذه المعرفة التي ليست سوى ما أراده المتكلم من الكلام))[٢٣]، ومن هذا المنطلق يصبح مفهوم القصدية أداة حيوية في فهم اختلاف القراءات القرآنية؛ إذ قد يؤدي بعض الاختلافات اللفظية إلى توسعة دائرة المقصود أو توجيه الخطاب القرآني توجيهًا دلاليًا آخر، بما يبرز أثر القصد في التعليل التداولي للقراءات.

أما التعليل التداولي الذي ارتضيناه عنوانًا للبحث فهو تقنية تقوم على توظيف المعايير التداولية لتفسير تنوع القراءات القرآنية الفرشية، على أساس أنَّ كلّ قراءة تمثل استجابة لشرط مقامي أو غرض تواصلي مخصوص، وتعكس جانبًا من أوجه المعنى الكلي للخطاب القرآني، أو تسهم في توسيع دائرته الزمانية أو المكانية أو الاجتماعية، بحيث لا يكون التعدد مجرد اختلاف لفظي، بل تنوعًا مقصودًا يخاطب مقامات متعددة، ويصوّر أحوالًا متنوعة.

المبحث الأول: دور القراءات في نقل ظروف الخطاب وبيان أحوال المخاطبين

يعدُّ نقل الواقعة بصدق وأمانة من بين أهم الأهداف التي يسعى القرآن الكريم لتحقيقها، فهو يدأب على رسم تمثلات مطابقة للكون تتسم بالمصداقية، ويتوقف صدق المعلومة على تمثيلها بشكل مناسب حدثًا أو وضعًا قائمًا في الكون أو كان قائمًا[٢٤]، ولكن قد يكون لهذه الواقعة أكثر من حقيقة، وهذا الاختلاف في صدق الحقائق قد يكون ناشئًا عن كثرة الأشخاص المشاركين في هذه الواقعة أو تلك، فتسهم القراءات في رسم صورة دقيقة لظروف الحدث واختلاف أحوال المتحدث عنهم وتباين مدى التزامهم بما يضمن صدق الخبر، يظهر ذلك جليًا في قوله تعالى: ((**فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ**)) (البقرة/٢٤٩)، قرئت (غرفة) بضم الغين وفتحها[٢٥]، وقيل: (غُرفة) بالضم الشيء القليل الحاصل بالكّف، وبالفتح (غَرفة) مصدر مرّة –أي الاغتراف لمرّة واحدة-[٢٦]، فكلُّ قراءة تعبر عن حال من أحوال عملية الشرب، فإذا كانت قراءة الضم (غُرفة) تشير إلى كمية المشروب، فإنَّ قراءة الفتح (غَرفة) تشير إلى عدد مراته، ومجموع القراءتين يفيد بأنَّ الحدَّ المسموح بشربه من ذلك النهر هو مقدار كف واحدة، وإنَّ تجاوز ذلك الحد سيؤدي إلى الخروج من جيش طالوت وجماعته. وقيل إنَّ: ((الغرفة بِالْيَدِ

---

[٢٠] – ينظر: اللسانيات الوظيفية : ١١٢ .

[٢١] – ينظر : القصدية في النظرية التداولية دراسة تأصيلية تطبيقية: ١٧ .

[٢٢] – في تداوليات القصد: ١٢١٢ .

[٢٣] – في تداوليات القصد: ١٢١٢ .

[٢٤] – ينظر: التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ٨٢ .

[٢٥] – ينظر: التبيان في تفسير القرآن: ٣/ ٤٢١، ومجمع البيان في تفسير القرآن: ٢/ ١١٩ .

[٢٦] – ينظر: مفاتيح الغيب : ٦/ ٥١١ .

مَفْتُوح وَفِي الاناء مضموم))[٢٧]، وقيل: ((الغَرفة بالكف الواحد (كذا في النص) والغُرفة بالكفين))[٢٨]، وعلى هذا المعنى فإنَّ كلَّ قراءة تكون بصدد إبراز جانب مختلف من جوانب الواقعة وتصور حالًا مختلفة من أحوال الجنود، فهم بين شارب بيده، وبين مغترف بإنائه لمرة واحدة، ليشرب هو وخدمه ودوابه[٢٩]، وبين متحرز شارب بكفّ واحدة، وبين متسامح شارب بكفيه. فتنوع القراءة كان مرآة لتنوع الهيأة الواقعية لتلك الحادثة، ومفصل لجوانبها المتعددة، ناهيك عمَّا يستلزمه كلّ معنى من معاني القراءات من بون في التزام الجنود حتى بين أولئك الذين لم يغترفوا إلا غرفة، بما يضمن صدق الجملة الخبرية[٣٠]، الأمر الذي يضفي على النّصّ بعدًا تداوليًا دقيقًا ينسجم مع طبيعة الحدث وتفصيلاته، فيعكس النّصّ عبر تعددية قراءاته تعددية في نقل الأحوال الواردة في الحادثة، ممّا يعطي مرونة ومصداقية في تصوير الواقع عبر تنويع التعبير عن تلك الأحوال. وربما كان سبب التنوع في القراءات أنّ لكلّ مشارك في الحدث وجهة نظره أو قوله الخاص به، ومن ثُم لا يمكن توحيد أقوالهم تحت صيغة لفظية واحدة، وهنا يأتي دور القراءات القرآنية؛ إذ إنَّها تسهم في نقل أكثر من صيغة قولية بصيغة كتابية واحدة، ففي قوله تعالى: ((**مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ**)) (البقرة/ ١٠٥)، حيث قرئ الفعل (ينزل) بالتشديد والتخفيف[٣١]، فقراءة التشديد تعني أن الفعل مأخوذ من الفعل (نزّل) على الصيغة الصرفية (فعّل) وهذه الصيغة تدل على تكرار الحدث وتكثيره، في حين تشير قراءة التخفيف على أنَّ الفعل مأخوذ من (أنزل) أي على صيغة (أفعل) الدالة على حدوث الفعل دفعة واحدة[٣٢]، فلما كانت الآية الكريمة تحاول نقل آماني المشركين وهؤلاء متفاوتون في بغضهم وعداوتهم للمسلمين، فاختلفت أقوالهم تبعًا لاختلاف قلوبهم، فبعضهم يتمنى ألّا ينزل عليكم الخير مكررًا، وبعضهم الآخر يود ألّا ينزل عليكم الخير كثيره ولا قليله، وبعضهم الآخر لا يريدون لكم الخير قليله أو كثيره، لا مجموعًا ولا مفرقًا، فالمشاركون في الحدث الكلامي لم يجمعوا على قول واحد ولم يتمنوا أمرًا محددًا، وواقعة التمني وإن كانت في ظاهرها واحدة إلا أنَّها في حقيقتها متعددة ومتنوعة، وهذا التنوع والاختلاف يجب أن يمثل بشكل مناسب في الفعل الخبري ليتحقق له صدق المعلومة المنقولة، فصدق الخبر من مقتضيات الجملة الخبرية وشروطها الرئيسة، سواء أتعلق ذلك الصدق بصدق المتكلم وما يعرفه في القضية المتحدث عنها، أو ما يتعلق بصدق الجملة نفسها[٣٣] وما تتضمنه من محتوى قضوي[٣٤]. وقريب من ذلك ما ورد من قراءات في ((**بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**)) (البقرة/٩٠) حيث قرئت (ينزل) بالتخفيف والتشديد[٣٥]، فالاختلاف هنا بين (التنزيل والإنزال) جاء محاكاة لأحوال العباد، فإنزال الله الفضل على عباده مختلف باختلاف العباد متغير بتغير أحوالهم، وكلٌّ يأخذ بحسب طاقته، ويعطى بحسب ما يصبُّ في مصلحته. ويمكننا القول أنَّ الأمر ذاته ينطبق على قوله تعالى: ((**وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا**

---

[٢٧] – الحجة في القراءات السبع: ٩٩ .
[٢٨] – الجامع لأحكام القرآن : ٢/ ٢٥٣ .
[٢٩] – ينظر: مفاتيح الغيب: ٥١١/٦ .
[٣٠] – لمزيد من التفصيل عن الجملة الخبرية وخواصها وأنواعها، ينظر : القاموس الموسوعي للتداولية: ٥٤ .
[٣١] – ينظر: الحجة في القراءات السبع: ٨٥ .
[٣٢] – ينظر: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني : ٦٠ .
[٣٣] – ينظر: القاموس الموسوعي للتداولية: ٥٤ .
[٣٤] – لمزيد من التفصيل عن المحتوى القضوي ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٧٢ .
[٣٥] – ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٢١٧/١ .

بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)) (البقرة/١٣٢)، ففي (وصّى) قراءتان، هما (وصّى) بالتشديد وتدل على الإلحاح وتكرار فعل التوصية، و(أوصى) بالهمز تدل على الإبلاغ دفعة واحدة أو مرة فقط[٣٦]، ويبدو أنَّ اختلاف المشاركين في الحدث الكلامي كان السبب وراء كلِّ قراءة من هذه القراءات. فالوصية وإن كانت ثابتة من قبل إبراهيم ويعقوب (عليهما السلام) إلا أنَّ من خاطبهم إبراهيم ويعقوب تختلف أحوالهم ففيهم البر وفيهم الفاجر، وهم متفاوتون في إيمانهم مختلفون في أحوالهم؛ لذا تكون قراءة (أوصى) حاكية عن حال إبراهيم ويعقوب مع أبنائهم البررة الذين لا حاجة للموصي (لإبراهيم/ يعقوب) بالتكرار معهم أو التأكيد عليهم، في حين تكون قراءة (وصّى) حاكية عن حال الموصي مع أبنائه الآخرين؛ فيذكرهم إذا نسوا، ويوجههم إذا اخطؤوا، فالقراءتان جاءتا لضمان الشرط الأساسي من شروط القضية (الخبر بكيفية الوصية)، فهما في صدد ضمان صدق القضية[٣٧]؛ لأنَّ الوصية لم تكن على كيفية واحدة، بل تنوعت واختلفت باختلاف المتكلم والمخاطب.

إنَّ القراءة ليست ترفًا لفظيًا، بل هي كاشف لحال مختلفة أو إخبار عن صنف آخر تجمعه بالصنف الأول رابطة معينة، وكلُّ قراءة من القراءات تؤسس لسياقٍ خاصٍ بها متناسب معها، فتحاكي كلّ قراءة صنفًا خاصًا بها، يبدو ذلك جليًا في قوله تعالى: ((**مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**)) (البقرة/٨١) قرئت خطيئته على الإفراد، وبالجمع (خطيئاته)[٣٨]، ويبدو أنَّ اختلاف القراءتين تابع لاختلاف أحوال المتحدث عنهم؛ فقد يدخل الإنسان النار بسبب خطيئة واحدة كالكفر بالله أو الشرك به[٣٩]، وهذا الصنف تناسبه قراءة الإفراد (خطيئته). وقد لا يكون كافرًا ولا مشركًا إلا أنَّه مجترح للسيئات فاعل للفواحش، فيستوجب ذلك الدخول للنار، وهذا الصنف تناسبه قراءة الجمع (خطيئاته)[٤٠]، فلما كانت كلُّ قراءة تعبر عن صنف معين من أصناف أصحاب النار أدى ذلك إلى تنوع القراءات. كما تبرز القراءات أحوال المخاطبين ومواقفهم الأخلاقية والسلوكية، وفي هذا السياق يلحظ قوله تعالى: ((**وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ**)) (البقرة/٨٥) قرئت (تفادوهم) و(تفدوهم)[٤١]، واختلفوا في تحديد معانيها، فقالوا: ((معنى تُفَادُوهُمْ: تَفدُوهُم، إِذِ المُفَاعلَة تَكُونُ مِن اثنَين، وَمِن وَاحِدٍ. فَفَاعَلَ بِمَعنَى: فَعَلَ المُجَرَّدِ، وَهُوَ أَحَدُ مَعَانِيهَا. وَقِيلَ: مَعْنَى فَادَى: بَادَلَ أَسِيرًا بِأَسِيرٍ، وَمَعْنَى فَدَى: دَفَعَ الْفِدَاءَ... مَعْنَى تَفْدُوهُمْ بِالصُّلْحِ، وَتُفَادُوهُمْ بِالْعُنْفِ. وَقِيلَ تُفَادُوهُمْ: تَطْلُبُوا الْفِدْيَةَ مِنَ الْأَسِيرِ الَّذِي فِي أَيْدِيكُمْ مِنْ أَعْدَائِكُمْ... وَتَفْدُوهُمْ: تُعْطُوا فِدْيَتَهُمْ. وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ مَعْنَى تُفَادُوهُمْ فِي اللُّغَةِ، تُطْلِقُونَهُمْ بَعْدَ أَنْ تَأْخُذُوا عَنْهُ شَيْئًا))[٤٢]، فالقراءتان تسهمان في إبراز أوجه متعددة من اللوم الإلهي لبني إسرائيل سواء من بادل منهم أسيرًا بأسير أو من دفع المال فداءً لهم أو من صالحهم أو من طلب فيهم فدية، ومجموع القراءتين كان سببًا في إبراز الخطاب القرآني لذلك التنوع في أحوال اليهود. وتتنوع القراءات في قوله تعالى: ((**وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**)) (البقرة/١٤٨) بين البناء للفاعل(موليها) والبناء للمفعول (مولاها)[٤٣]، فالحجة لمن قرأها

---

[٣٦] – ينظر: الحجة في القراءات السبع: ١١٥ ، والتبيان في تفسير القرآن: ٢٠/٣ .

[٣٧] – ينظر: نظرية الفعل الكلامي: ١٢٢ .

[٣٨] – ينظر: التبيان في تفسير القرآن: ٣٥٤/٢، ومجمع البيان في تفسير القرآن: ٢٠١/١.

[٣٩] – ينظر: الحجة في القراءات السبع: ٨٣ .

[٤٠] – ينظر : البحر المحيط في التفسير: ٤٥٠/١ .

[٤١] – ينظر: التبيان في تفسير القرآن: ٣٦٨/٢، ومجمع البيان في تفسير القرآن: ٢٠٨/١ .

[٤٢] – البحر المحيط في التفسير : ٤٦٩/١ .

[٤٣] – ينظر: التبيان في تفسير القرآن: ٧٥/٣ .

(مولًاها) ((أنه جعل المولى مَفعُولا بِهِ... وَالحجّة لمن قَرأَها بِالياءِ وَكسر اللَّام أَنه أَرَادَ مولي وَجهه اليها... وَالْمولى هَا هُنَا هُوَ الْفَاعِل))[٤٤]، ويبدو أنَّ لاختلاف أحوال ذلك الكلّ –كل مولي- أثرًا في تغير القراءات، فقراءة (المولي) تناسب من اتخذ منهم قبلة لنفسه من دون ما أمر إلهي فتوجهه للقبلة من تلقاء نفسه، أو من تلقى تلك التولية بالقبول حتى كأنّها نابعة ذاته ومن صميم اختياره، مما يضمر نوعًا من القبول النفسي أو الرغبة الذاتية في الامتثال. أما قراءة (مولى) فتناسب أصنافًا أخرى منهم الذين يتولون القبلة بوازع إلهي أو ديني[٤٥]، كما تنطبق على من يتولونها امتثالًا لأمر أحبارهم أو رهبانهم. فكلُّ قراءة تحاكي صنفًا من الناس، أو تكشف عمّا يختلج نفوسهم من القبول والرضى والطاعة.

وقد تبرز بعض القراءات أثرًا مباشرًا في تصوير العلاقة بين أطراف الخطاب من حيث تحديد الفاعل والمفعول، ويؤدي هذا التباين إلى نقل صورة مغايرة لظروف الخطاب وأحوال المخاطبين، سواء على مستوى المبادرة بالفعل أو الاستجابة له، بما يسهم في بناء تصور متعدد لوقائع النصّ وتفاعل الشخصيات، ومن ذلك قوله تعالى: **((فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ))** (البقرة/٣٧) وفي هذه الآية المباركة قراءتان، أولاهما برفع كلمة (أدم)، والأخرى بنصبها[٤٦]، ويترتب على هذا التباين في القراءة تغير في زاوية النظر إلى الحدث الواقع (التوبة)، حيث تبرز قراءة الرفع آدم بوصفه المبادر إلى التوبة ويكون الندم سببًا في قبول تلك التوبة، في حين تبرز القراءة الثانية دور الرحمة الإلهية في تحقق التوبة بوصفها البادئة بالتلقين[٤٧]، بما يشعر بأسبقية العفو على الذنب، فلا تناقض بين القراءتين بل يتكاملان في وصف كيفية حصول التوبة؛ إذ تقع بينَ مبادرة العبد وقبول الرّبّ، وكلاهما يعبر عن بعد خاص في المشهد التداولي يبرز أحدهما فاعلية الإنسان، ويظهر الآخر سعة الرحمة الإلهية. وقريب من ذلك ما نجده في قوله تعالى: **((وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ))** (البقرة/١٢٤)، حيث قرئت بنصب كلمة (إبراهيم) ورفعها، فقراءة النصب تجعل (إبراهيم) مفعولًا به لفعل الإبتلاء، فإبراهيم، على وفق هذه القراءة، مبتلي، في حين تصيّر قراءة الرفع (إبراهيم) فاعلًا، أي أنَّه هو الطالب للابتلاء والساعي إليه[٤٨]. فإذا أبرزت القراءة الأولى جانب الاختبار الإلهي، فإنَّ القراءة الثانية تبرز استعداد إبراهيم (عليه السلام) واستعداده للابتلاء. ولسائل أن يسأل: كيف لا تتناقض هاتان القراءتان، فإما أن يكون الله هو المبتدئ في الابتلاء أو يكون إبراهيم هو المبتدئ؟! وإزالة التناقض عن هاتين القراءتين بسيط؛ إذ يمكن القول إنَّ كلَّ ابتلاء يختلف في طبيعته عن الابتلاء الآخر، فابتلاء إبراهيم كان ذا طبيعة قولية، وطبيعة الابتلاء الإلهي كان ذا طبيعة عملية.

وقد يكون تنوع القراءات كاشفًا عن الخلفية الثقافية لأحوال المشاركين في الحدث الكلامي، يبرز ذلك جليًا في قوله تعالى: **((لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ))**(البقرة/١٧٧) قرئت بنصب البر ورفعها[٤٩]، ويتجاوز اختلاف القراءتين الجانب النحوي؛ إذ يحمل أبعادًا تداولية تتصل بوظيفة الخطاب ومقاصده، فتوحي قراءة النصب (ليس البرَ) بأهمية البر بوصفه محورًا للحكم المنفي؛ لأنَّ العرب يقدمون

---

[٤٤] – الحجة في القراءات السبع: ٩٠ .

[٤٥] – ينظر : الكشاف : ٢٣١/١، والتحرير والتنوير: ٤٣/٢ .

[٤٦] – ينظر: التبيان في تفسير القرآن: ١١٤/٢، ومجمع البيان في تفسير القرآن: ١١٨/١.

[٤٧] – ينظر: الجامع لأحكام القرآن : ٣٢٦/١ .

[٤٨] – ينظر: الكشاف : ٢١٠/١ .

[٤٩] – ينظر : الحجة في القراءات السبع : ٩٢، ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن : ٣٦٣/١، ومفاتيح الغيب: ٢١٢/٥ – ٢١٣ .

ما هو مهم لديهم وما هم ببيانه أعنى[٥٠]، ممّا يدل على أهمية هدم التصور الشكلي السائد، لدى بعض المخاطبين، الذي يربط البر باتجاه القبلة فقط. أما قراءة الرفع (ليس البرُ)، بمحافظتها على الترتيب الأصلي للجملة، فتركز على إبراز التصور الصحيح للبر وكأنَّها في صدد إعادة تعريف البر وليس نفيه فقط. فالقراءتان تبرزان تمايزًا في الفئات المخاطبة وتعطي تصورًا عن خلفياتهم الثقافية والمعرفية، فالمخاطب الذي يعيش تصورًا خاطئًا يحتاج إلى خطاب تفكيكي (قراءة النصب). بينما المخاطب الذي يطلب لم يتخذ تصورًا مسبقًا يخاطب بتقديم التصور الصحيح (قراءة الرفع).

يتضح في ضوء ما تقدم أن اختلاف القراءات لم يكن عشوائيًا، ولا مجرد تنوع صوتي، بل هي قرائن يمكن توظيفها وجعلها كاشفًا تداوليًا، يمكن من خلاله أن نفهم تنوع أحوال المخاطبين واعتقاداتهم وطبيعة الموقف، بما يجعلها جزءًا من بنية الواصل القرآني، غير أنَّ هذا البعد لا ينفصل عن سائر الأبعاد الأخرى؛ إذ تسهم ظروف الخطاب في تحديد طبيعة الفعل المنجز، وهو ما سيتكفل ببيانه المبحث القادم.

المبحث الثاني: دور القراءات في تغير إنجازية الفعل أو شروط إنجازه

قد تؤثر القراءات على طبيعة الفعل المنجز في كلِّ قراءة، على أنَّ ذلك الاختلاف إنما هو اختلاف تنوع لا اختلاف تعارض وتناقض؛ إذ يمكن الجمع بين معاني تلك القراءات، على نحو ما نجده في القراءات الواردة في قوله تعالى: ((**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ**)) (البقرة/ ١١٩)، حيث قرئت بقراءتين: الأولى: (ولا تُسأَل) وتكون فيها (لا) نافية والفعل مبنيًا للمجهول، والقراءة الثانية: (ولا تَسأل)[٥١]، وتكون فيها (لا) ناهية والفعل مبني للمعلوم[٥٢]، وعلى القراءة الأولى تنجز فعلًا اخباريًا يتعهد فيه المتكلم بصدق القضية، فالله يضمن للمخاطب (النبي) بأنَّه لن يُسال عن أصحاب الجحيم. أما على القراءة الثانية فتنجز فعلًا طلبيًا غايته جعل المخاطب القيام بعمل ما[٥٣]، فالنبي على وفق هذه القراءة لا يحق له السؤال عن أصحاب الجحيم، وللجمع بين القراءتين نقول إذا كانت القراءة الثانية (النهي) في صدد بيان الحكم عن السؤال، فإنَّ القراءة الأولى جاءت لتعلل ذلك الحكم، فلا تَسأَلْ عنهم؛ لأنَّكَ لا تُسأل عنهم.الأمر ذاته ينطبق على قوله تعالى: ((**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**)) (البقرة/١٢٥) قرئت (اتخذوا) بفتح الخاء وكسرها[٥٤]، ويؤدي اختلاف القراءة إلى اختلاف الفعل اللفظي أو فعل القول وهو أول الأفعال التي ينجزها المتكلم حين النطق بالمقولة، وهذا التغيير بفعل القول سيؤدي إلى تغيير بطبيعة الفعل المنجز في المقولة[٥٥]، فقراءة الفتح تنجز فعلًا كلاميًا يدخل ضمن الإخباريات، في حين تنجز قراءة الكسر فعلًا كلاميًا يدخل ضمن التوجيهات، والحقيقة أنَّه لا تعارض بين القراءتين غير أنَّ كلَّ واحدة منهما تعبر عن حقيقة لا تعبر عنها أختها، فـ((ان الله تَعَالَى أَمرهم بذلك مبتدئا فَفَعَلُوا مَا أمروا بِهِ فَأثْنى بذلك عَلَيْهِم وَأخْبر بِهِ))[٥٦] فهاتان القراءتان تمثلان زاويتين خطابيتين مختلفتين

---

[٥٠] – ينظر: الكتاب: ١/ ٣٤ .

[٥١] – ينظر: التبيان في تفسير القرآن: ٢/ ٥٠٦، ومجمع البيان في تفسير القرآن: ١/ ٢٧٠ .

[٥٢] – ينظر: الكشاف : ١/ ٢٠٨ .

[٥٣] – لمزيد من التفصيل عن الأفعال الكلامية ينظر: العقل واللغة والمجتمع: ١٨٣– ١٨٤، والتداولية من أوستن إلى غوفمان: ٦٦، ونظرية الأفعال الكلامية "بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب":٣٠– ٣١.

[٥٤] – ينظر : مفاتيح الغيب : ٤/ ٤٣ .

[٥٥] – ينظر : نظرية الفعل الكلامي: ٧٩ .

[٥٦] – الحجة في القراءات السبع : ٨٧ .

وتعبران عن فترتين زمنيتين متباينتين، فقراءة الكسر تعبر عن أمر إلهي موجه للمسلمين، بينما كانت قراءة الفتح في معرض الإخبار عن امتثالهم والثناء عليهم، وهي مرحلة تالية لمرحلة الأمر.

وتبرز بعض القراءات الفرشية تغيرًا في تموضع المتكلم والمخاطب داخل السياق الخطابي، ممّا ينعكس مباشرة على التوجيه التداولي للفعل، يتجلى ذلك واضحًا في قوله تعالى: ((**فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)) (البقرة/٢٥٩)، يقرأ (أعلم) ((بقطع الألف وَالرَّفع وبوصلها وَالوَقف فالحجة لمن قطع أَنه جعله من إخبار المُتَكَلّم عَن نَفسه وَالحجّة لمن وصل أَنه جعله من أَمر الله تَعَالى للمخاطب))[٥٧]، إنَّ طبيعة كلّ قراءة تسهم في تحديد نوع الفعل الكلامي المنجز، فقراءة الفتح والضم (وأعلمُ أنّ الله) تنتج فعلًا إخباريًا، بينما تنتج قراءة الجزم (واعلمْ) فعلًا توجيهيًا يأخذ طابع الأمر، والجمع بين القراءتين يعكس تفاعلًا تداوليًا مزدوجًا ويحكي حالًا واقعة: المتكلم يأمر ويوجه، والمخاطب يقرّ ويستجيب، فكأن فعل القراءة بجزم (واعلمْ) هو قول المتكلم، وفعل القراءة بضم (وأعلمُ) هو تجلٍ لاستجابة المخاطب، وكأن المشهد التداولي لمجموع القراءتين يضارع قوله تعالى: ((**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**)) (البقرة/١٣١)، حيث تتداخل مقامات التوجيه والإقرار ضمن بناء قرائي متعدد الدلالة.

وقد يؤدي اختلاف القراءات إلى تغير قصدية المتكلم في كلّ قراءة، يظهر ذلك في قوله تعالى: ((**وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ**)) (البقرة/٢٨٥)، هناك قراءتان: قراءة (كتبه) بالجمع، وقراءة (كتابه) بالإفراد، ((فالحجة لمن جمع أَنه شاكل بَين اللَّفْظَيْنِ وحقق الْمَعْنى لِأَن الله تَعَالَى قد أنزل كتبا وَأرْسل رسلًا وَالْحجّة لمن وحد أَنه أَرَادَ الْقُرْآن لِأَن اهل الْأَدْيَان الْمُتَقَدّمَة قد اعْترف بَعضهم لبَعض بكتبهم وآمنوا بهَا إِلَّا الْقُرْآن فَإِنَّهُم أنكروه فَلذَلِك أفرد وَجمع الرُّسُل لأَنهم لم يجمعوا على الايمان بهم))[٥٨]، يتجلى البعد التداولي للقراءتين في كونهما تتغايران في قصدهما من غير ما تعارض، فإذا كانت قراءة الجمع (كتبه) تؤكد على ضرورة الإيمان بجميع الكتب السماوية والتصديق بها، فإنَّ قراءة الإفراد (كتابه) تؤكد على ضرورة الإيمان بالقرآن الكريم خصوصًا بوصفه مصدقًا لما في تلك الكتب ومهيمنًا عليه.

وقد تتفق القراءتان في الفعل المنجز غير أنَّهما يختلفان في القوة الإنجازية لكلّ منهما، ففي قوله تعالى: ((**فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ**)) (البقرة/١٩٧)[٥٩]، توجد قراءتان لـ(رفث وفسوق) حيث قرئت بالرفع وبالبناء على الفتح[٦٠]، وكلُّ قراءة تنجز فعلًا كلاميًا مختلفًا، حيث تنجز قراءة الرفع (لا رفثٌ ولا فسوقٌ) فعلًا توجيهيًا مباشرًا وتكون (لا) ناهية داخلة على فعل محذوف تقديره (يكون) كَأَنَّهُ قِيلَ: فَلَا يكونَنَّ رَفَثٌ وَلَا فُسوقٌ[٦١]، في حين تنجز قراءة البناء على فعلًا توجيهيًا غير مباشر يتضمن فيه النفي، بـ(لا)

---

[٥٧] – الحجة في القراءات السبع: ١٠٠ .

[٥٨] – الحجة في القراءات السبع: ١٠٥.

[٥٩] – الأمر ذاته ينطبق على قوله تعالى: ((أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ)) (البقرة/٢٥٤).

[٦٠] – ينظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها : ٢٨٥ .

[٦١] – ينظر : الكشاف (دار التراث) : ٢٧١/١ .

النافية للجنس، النهي[٦٢]. والقراءتان وإن اتفقتا في طبيعة الفعل المنجز إلا أنَّهما يختلفان باختلاف القوة الانجازية لكلّ قراءة، فقراءة الرفع فعلًا طلبيًا مباشرًا واضحًا، بخلاف قراءة النصب[٦٣].

تتجاوز القراءات حدود الاختلاف في القوة الإنجازية، للتناغم كلّ منها مع سياقها المقامي، محققة بذلك انسجامًا تداوليًا دقيقًا، ففي قوله تعالى: ((**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ**)) (البقرة/٢٤٠)، قرئت (وصيةٌ) بالرفع على أنَّها خبر لمبتدأ محذوف، وقرئت (وصيةً) بالنصب على أنَّها مصدر نائب مناب فعل الأمر[٦٤]، والتقدير (أوصِ وصيةً)[٦٥]، وهو ما صرح به صاحب كتاب (الحجة في القراءات السبع)، حيث قال: ((الحجة لمن رفع أنه أراد فلتكن وَصِيَّة أو فأمرنا وصِيَّة... فَالْوَصيَّة لأزواجهم متاعا وَالحجّة لمن نصب أنّها مصدر والاختيار فِي المصادر النصب إذا هيَ وَقعت مواقع الْأَمر))[٦٦]، ويبرز هذا الفرق البعد التداولي في تحديد طبيعة القول على وفق كلّ قراءة؛ فالنصب يدلّ على قوة إنجازية عالية، فهو فعل توجيهي مباشر صادر من المتكلم في مقام إلزامي، موجهٌ إلى مخاطَب ذي مرتبة دنيا، وهو ينشئ إلزامًا واضحًا تجاه المخاطبين (الأزواج). أما قراءة الرفع فتخفف من القوة الإنجازية؛ لأنّ القول معها محتمل للإخبار والتقرير وليس الإنشاء والطلب. وهذه القراءة تناسب سياقات التلطف أو الأمر من دون حدة أو مخاطبة الوجدان، وكأنَّ القضية على وفق هذه القراءة ليست بحاجة إلى أمر مباشر، فهي نظير قوله تعالى: ((**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ**)) (البقرة/٢٣٣)، ويُفهم من كلّ قراءة أنَّها تناسب صنفًا خاصًا من أصناف الناس، فبعضهم لا يحتاج إلا إلى التذكير أو مخاطبة الوجدان بضرورة حفظ حقوق النساء، وبعضهم لا تقام عليه الحجة إلا بالأمر المباشر بما لا يتيح له شكّ أو احتمال.

وقد يدخل العنصر الإشاري[٦٧] طرفًا في تغيير إنجازية الفعل، يظهر ذلك جليًا في قوله تعالى: ((**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ**))[٦٨](البقرة/٨٣)، حيث وردت قراءتان (لا تعبدون...) بصيغة الخطاب المباشر، و(لا يعبدون...) بصيغة خطاب الغيبة[٦٩]، وينتج هذا التنوع في الضمير بتحول في الموقف التخاطبي بين الحضور والغيبة، ممّا يجعل لكلّ قراءة مقصدًا تداوليًا مستقلًا، فقراءة الخطاب (تعبدون) تنجز بصيغتها الخبرية فعلًا كلاميًا توجيهيًا غير مباشر محملة بني إسرائيل المسؤولية في صيانة

---

٦٢ – وقريب من ذلك ما ورد من قراءات في قوله تعالى ((لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ)) (البقرة/٢٣٣) حيث قرئت (لا تضارُ) و (لا تضارَّ)

٦٣ – لمزيد من التفصيل والإيضاح حول القوة الانجازية ينظر: تعديل القوة الانجازية دراسة في التحليل التداولي للخطاب: محمد العبد (بحث): ٣١١ وما بعدها.

٦٤ – ينظر: التبيان في تفسير القرآن: ٣/٤٠٢ .

٦٥ – ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٢/١٠٦ .

٦٦ – الحجة في القراءات السبع: ٩٧ .

٦٧ – لمزيد من التفصيل عن الاشاريات ينظر: القاموس الموسوعي للتداولية: ٣٨٧، واستراتيجيات الخطاب "مقاربة لغوية تداولية":١٢٦، وتداولية الإشاريات في الخطاب القرآني : حمادي مصطفى: ٦٤، بحث منشور في مجلة الأثر، العدد ٢٦، سبتمبر/ ٢٠١٦م.

٦٨ – تكرر الخلاف في القراءات بين الغيبة والخطاب في أكثر من آية في سورة البقرة منها: الآيات: (٧٤ ، ٩٦، ١٤٠، ١٤٤، ١٤٩، ١٥٨، ١٦٥)

٦٩ – الحجة في القراءات السبع : ٨٣ .

العهد الإلهي في الماضي وتذكير السامعين منهم للخطاب القرآني بذلك الميثاق. في حين تنقل قراءة الغَيبَة (يعبدون) الحدث بصيغة الحكاية، وهي تنجز فعلًا كلاميًا خبريًا غرضه إثبات قصور تلك الجماعة المتحدث عنهم (بني إسرائيل) وهادفة إلى تقديم العظة التاريخية من تلك الحادثة للمسلمين، محذرًا إياهم من تكرار الموقف ذاته. فورود القراءتين يهدف إلى تنويع غايات الفعل وأغراضه بين التحذير والتذكير والإلزام.

وقد تكون القراءتان في معرض بيان شروط الفعل ولوازمه على نحو ما نجده في قوله تعالى: **((وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ))** (البقرة/٢٢٢) قرئت (يطْهرنَ)، بالتخفيف وتعني مجرد انقطاع الدم، وقراءة التشديد (يطّهرنَ) أي بالاغتسال[٧٠]، وتكشف هاتان القراءتان عن بعد تداولي مهم تتمثل في بيان شروط رفع الحظر عن إتيان النساء، فتقدم كلّ قراءة، من وجهة نظر الباحث، شرطًا من شروط إتيان النساء، فشرطه الأول هو انقاط الدم الذي تلمح إليه قراءة التخفيف (يطْهرن)، وشرطه الآخر هو الاغتسال الذي تلمح إليه قراءة التشديد (يطّهرنَ)[٧١]، فلا بدَّ من تحقق الطهارة بنوعيها: الطهر الطبيعي بانقطاع الدم، والطهر الاجرائي بفعل الغسل. ولا يمكن الاكتفاء بحال دون أخرى.

إنَّ الغاية الكبرى التي يسعى إلى تحقيقها الرسول والرسالة هي الخلاص من النار والفوز بالجنة، إلا أنَّ أسبابًا كثيرة قد تحول دون تحقيق تلك الغاية؛ لذا تأتي القراءة لتعداد بعض الأسباب المفضية إلى النتيجة غير المرغوب بها، يتجلى ذلك في قوله تعالى: ((**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**)) (البقرة/١٠)، ففي لفظ (يكذبون) قراءتان هما (يَكذِبون) من الكذب أي أنَّهم يخبرون غيرهم خلاف ما عليه الواقع، والقراءة الأخرى (يُكذِّبون) من تكذيب غيرهم[٧٢]، وعدم التصديق بما جاء به النبي[٧٣]، ومجموع القراءتين إما أن يدل على أنَّ العذاب سيشمل طائفتين مختلفتين من الناس (من كَذَبَ) و(من كَذَّبَ)، وعلى هذا تكون القراءات في صدد بيان الشمول والتفصيل وتعديد الأنواع. أو أنَّ العذاب سيختص بطائفة من الناس دون غيرهم وتلك الطائفة هي التي جمعت في سلوكها الكذب والتكذيب معًا، لتكون القراءة الأخرى في معرض بيان شرط آخر من شروط مستحقي العذاب الأليم، وليست لبيان صنف آخر من أصنافهم.

اتضح عن طريق التحليل أنّ القراءات الفرشية تؤثر في طبيعة الفعل المنجز، أو في قوته الإنجازية، أو أنها تسهم في إضافة شرط آخر من شروط انجازيته، فدورها لا يقتصر على نقل دلالات مختلفة، بل يفضي إلى تحولات دقيقة الوظيفة الإنجازية للخطاب. كما أنّها تسهم في توسيع دائرة الخطاب، وهو ما سيتكلم عنه المبحث الثالث.

المبحث الثالث : توسيع دائرة الخطاب:

ينتج الخطاب القرآني، دلالات تتسم بالمرونة والاتساع، حيث لا يقتصر الحكم أو المعنى على سياق زماني أو مكاني محدد، بل يتجاوزه ليشمل شرائح متعددة من المخاطبين، وتسهم القراءات الفرشية في تعزيز هذا الاتساع؛ إذ تؤدي بعض الخلافات القرائية إلى تعدد دلالي يوسع أفق الفهم، فيُقرأ النصّ قراءة أكثر شمولًا، أو تعاد قراءته في ضوء احتمال ما تصرح به القراءة الأخرى، ممّا يفتح دائرة الخطاب على

---

[٧٠] – ينظر: الحجة في القراءات السبع : ٩٦ .

[٧١] – يقول الرازي إنّ أكثر الفقهاء يذهبون إلى عدم جواز مجامعة الرجل لزوجته إلا بعد الاغتسال من الحيض، ينظر: مفاتيح الغيب: ٤١٩/٦ .

[٧٢] – ينظر: التبيان في تفسير القرآن:٣٩٨/١، ومجمع البيان في تفسير القرآن: ٦٢/١ .

[٧٣] – ينظر : الحجة في القراءات السبع : ٨٨ . والتحرير والتنوير: ١/ ٢٨٣ .

إمكانات تأويلية جديدة، نلمح ذلك جليًا في قوله تعالى: ((**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ**))[٧٤](البقرة/٨٣)، حيث وردت قراءتان (لا تعبدون...) بصيغة الخطاب المباشر، و(لا يعبدون...) بصيغة خطاب الغيبة[٧٥]، ويوحي هذا التنوع في الضمير بتحول في الموقف التخاطبي بين الحضور والغيبة، ممّا يجعل لكلّ قراءة مقصدًا تداوليًا مستقلًا، فقراءة الخطاب (تعبدون) تقدم مضمون العهد الإلهي بوصفه إلزامًا مباشرًا وموجهًا مخاطبين محددين، محملًا إياهم مسؤولية تلقي الأمر، كما يمكن حمل الضمير فيه على كلّ متلقٍ للخطاب. في حين تنقل قراءة الغَيبَة (يعبدون) الحدث بصيغة الحكاية، وهي تنجز فعلًا كلاميًا خبريًا غرضه إثبات قصور تلك الجماعة المتحدث عنهم (بني إسرائيل) وهادفة إلى تقديم العظة التاريخية من تلك الحادثة للمسلمين. فورود القراءتين إنّما يهدف إلى توسيع دائرة الخطاب القرآني ليشمل اليهود والمسلمين في السابق والحاضر، مضافًا إلى تنويع غاياته وأغراضه بين التحذير والتذكير والإلزام. وفي قوله تعالى: ((**وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ**)) (البقرة/١٦٥) وردت قراءتان الأولى (يرى الذين...) و(ترى الذين...)[٧٦]، فالفعل بالياء (يرى) تعني أنَّ الخطاب خاص بالظالمين، جاعلة منهم بؤرة الحدث التصويري لأنَّ الحدث سيكون متعلقًا بهم والتهديد موجهًا إليهم، في حين تعني قراءة التاء (ترى) شمولية الخطاب لكلّ سامع ابتداءً بالنبي محمد (ص وآله) وانتهاءً بآخر سامع[٧٧]، فتعدد القراءتين يؤدي إلى توسيع أفق التصوير القرآني، كما يؤدي إلى شمولية كلّ مخاطب بذلك التخويف والتهديد.

وقد تأتي القراءات لتوسيع زوايا النظر في القضية، فتبرز كلّ قراءة جانبًا معينًا من جوانب القضية، على نحو ما نجده في قوله تعالى: ((**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ**)) (البقرة/٣٦)، حيث قرئت (فأزالهما) من الزلل، و(أزالهما) من الإزالة[٧٨]، في كلا القراءتين يحيل العنصر الإشاري (هما) إلى (أدم وحواء) بوصفهما مرجعًا لتلك الإحالة[٧٩]، في حين تشير كلُّ قراءة على زاوية نظر تداولية تختلف عمّا تتناوله القراءة الأخرى، فإذا كانت قراءة (أزلهما) تشير إلى السبب، فإنَّ قراءة (أزالهما) تشير إلى النتيجة التي آلت إليها أحداث الواقعة، وهكذا تتعاضد القراءتان في توسيع جنبات النصّ. وقد يأتي التباين في القراءات كاشفًا للعلاقة بين المقدمات والنتائج أو بين السبب والمسبب الحقيقي، يظهر ذلك في قوله تعالى:((**وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**)) (البقرة/٢٧١)، حيث توجد قراءتان، إحداهما (نكفر) بالنون اسنادًا للفعل إلى الله تعالى أي نحن[٨٠]، والثانية

---

[٧٤] – تكرر الخلاف في القراءات بين الغيبة والخطاب في أكثر من آية في سورة البقرة منها: الآيات: (٧٤ ، ٩٦، ١٤٠، ١٤٤، ١٤٩، ١٥٨، ١٦٥)

[٧٥] – الحجة في القراءات السبع : ٨٣ .

[٧٦] – ينظر : الحجة في القراءات السبع: ١١٩ .

[٧٧] – اختلف المفسرون في تحديد مرجعية العنصر الإشاري في الفعل (ترى)، فمنهم من قال إن النبي محمد هو مرجع ذلك الضمير، ومنهم من قال إنَّه عام لكلّ مخاطب، ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧٨/٤، والجامع لأحكام القرآن: ٢٠٥/٢، والبحر المحيط في التفسير: ٢/ ٨٨، وفتح القدير: ١٩١/١.

[٧٨] – ينظر: الحجة في القراءات السبع: ٩٤ .

[٧٩] – عن موضوع الإشاريات وأنواعها : ينظر: التداولية لجورج يول: ٢٧ وما بعدها، والقاموس الموسوعي للتداولية: ٣٨٧، واستراتيجيات الخطاب "مقاربة لغوية تداولية":١٢٦،

[٨٠] – البحر المحيط في التفسير: ٦٩٢/٢ .

(يكفر)[٨١]، ويحتمل فيها أَنْ يُعَوَّد الضمير ((عَلَى الْإِخْفَاءِ أَيْ: وَيُكَفِّرُ إِخْفَاءَ الصَّدَقَاتِ وَنَسَبَ التَّكْفِيرَ إِلَيْهِ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ لِأَنَّهُ سَبَبُ التَّكْفِيرِ))[٨٢]، وهكذا تتكامل القراءتان تداوليًا؛ إذ تركز كلّ قراءة على جانب معين من فعل التكفير، فقراءة (يكفّر) تبرز سبب التكفير، في ما لو أسندنا الفعل للإخفاء، في حين تبرز قراءة (نكفّر) الفاعل الحقيقي والمسبب للتكفير ألا وهو الله.

وقد تحاكي كلُّ قراءة زاوية من زوايا المشهد القصصي القرآني، نحو ما نجده من قراءات في قوله تعالى: ((**وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا**)) (البقرة/٢٥٩)، حيث قرئت كلمة (ننشزها) بقراءتين هما: (ننشزها) من النشوز وهو الارتفاع أي ارتفاع العظام بعضها فوق بعض. وقراءة (ننشرها) من النشر وهو الإحياء والبعث[٨٣]، فإذا كانت القراءة الأولى تحكي عن مراحل عملية الإحياء وكيفية تركيب بعضها فوق بعض، فإنَّ القراءة الثانية تحكي عن الجانب النهائي للعظام فتدعم مشهد إعادتها للحياة، وبعثها من جديد. فكلُّ قراءة تركز على مشهد معين من مشاهد قصة الإحياء، وتعبر عن معنى ومقصود لا تعبر عنه أختها، فضلًا عن أنَّ كلَّ قراءة تلاؤم صنفًا خاصًا من أصناف المخاطبين، فمن كان منهم يعنى بالتفاصيل حكت له قراءة (ننشزها) عن تفاصيل تركيب العظام وتكوينها، ومن كان منهم يعنى بالخواتيم والنهايات أخبرتها قراءة (ننشرها) بتلك النهاية، ومن منظور تداولي يكشف لنا هذا الاختلاف مراعاة حالات الإدراك المختلفة عند المتلقين، فالتفصيل يناسب المتأملين أو المترددين، بينما يناسب التقرير الإجمالي أهل الإيمان والتصديق. وقريب من ذلك ما ورد من قراءات في قوله تعالى:((**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**)) (البقرة/٢٠٨)، قرئت (السلم) بـ((فَتْح السِّين وَكسرهَا وَالْحجّة لمن فتح أَنه أَرَادَ الصُّلْح وَمن كسر أَرَادَ الإسلام))[٨٤]، تشير قراءة الكسر (السِلم) إلى الإسلام وهي إما دعوة للمؤمنين من غير المسلمين إلى الالتحاق بركب الإسلام والدخول في جماعة المسلمين والالتزام بشرائعه[٨٥]، في حال كان الخطاب في صدر الآية **"يا أيها الذين آمنوا"** موجهًا للمؤمنين من أهل الكتاب من غير المسلمين[٨٦]. أو أن يكون الخطاب موجهًا للمؤمنين من المسلمين ليفهم من الآية الدعوة إلى ضرورة الالتزام بتعاليم الإسلام والطاعة الشاملة؛ لأنَّ الإسلام صلح في الحقيقة[٨٧]. في حين تشير قراءة الفتح (السَّلم) إلى المسالمة والمهادنة والصلح مع الجميع. وللجمع بين القراءتين نقول إنَّ قراءة (الفتح) جاءت لبيان علة الدعوة للدخول في الإسلام لغير المسلمين، أو التذكير بأهداف الإسلام السامية والالتزام بحقيقته، فيما لو فرضنا أن الخطاب في صدر الآية الكريمة موجه للمسلمين. فالقراءتان تتعاضدان لإبراز المعنى الكامل الذي ينسجم مع مقاصد الخطاب القرآني. أما في قوله تعالى: ((**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا**)) (البقرة/٢١٩) فتوجد قراءتان: الأولى (إثمٌ

---

[٨١] – ينظر: تقريب النشر في القراءات العشر: ١٣٣.

[٨٢] – البحر المحيط في التفسير : ٦٩٢/٢ .

[٨٣] – ينظر: الكشاف: ١/ ٣٣٥، والجامع لأحكام القرآن: ٢٩٥/٣، والبحر المحيط في التفسير: ٦٣٧/٢، وحجة القراءات : ١٤٤ .

[٨٤] – الحجة في القراءات السبع: ٩٥ .

[٨٥] – ينظر : البحر المحيط في التفسير: ٢/ ٣٣٨ .

[٨٦] – ينظر: الكشاف : ١/ ٢٨٠ .

[٨٧] – ينظر : البحر المحيط في التفسير: ٢/ ٣٣٨ .

كبير)، والقراءة الثانية (إثمٌ كثير)[٨٨]، والقراءة الأولى (كبير) تبرز خطورة شرب الخمر ولعب القمار واضعة إياهما - أي شرب الخمر ولعب القمار- في بؤرة اهتمامها مؤكدة على الحدث نفسه، بصرف النظر عن النتائج المترتبة عليهما، فهذه القراءة تركز على عظم ذنب الشرب وشناعته؛ لأنّهما من الذنوب الكبيرة[٨٩]. في حين تسلط قراءة (كثير) على الآثار الناجمة عن ذلك الحدث أو المشاركين فيه والممهدين له والموفرين لأسبابه، فكلُّ قراءة تغطي زاوية تداولية وتعبر عن معنى لا يستفاد من قراءة أختها، وبالتالي فإنَّ مجموع القراءتين يغني دلالات النص القرآني ويوسع أفق تلقيه ويعدد معانيه.

إنَّ تعدد القراءات في بعض المواضع ليس ترفًا لفظيًا، بل هو وسيلة تداولية لتوسيع دائرة الخطاب، وتفصيل دلالته بما يتلاءم مع المقام أو المخاطَب، ففي قوله تعالى: **((وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ))** (البقرة/١٦٤)، وردت قراءتان (الريح) بالإفراد، و(الرياح) بالجمع[٩٠]، وقد لا يتضح البعد التداولي لمجموع القراءتين ما لم نقف على ما ذكره العلماء من فرق في الاستعمال بين (الريح والرياح) في القرآن؛ إذ جرت عادة القرآن أن يستعملها مجموعة (الرياح) في مواضع الرحمة، ويستعملها مفردة (الريح) في سياق العذاب، إلا في يونس في قوله تعالى: **((وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ))** (يونس/٢٢)[٩١]، فالقراءتان تستلزمان أن ذلك التصريف شامل لجميع الأنواع ما كان منها رحمة وما كان منها عذابًا، وأنَّه لا يختص بنوع دون آخر، بل يتناول الأنواع كلّها. وهو ما يتناسب مع قدرة الله وتصريفه المطلق للأحوال المتقابلة (النعمة والنقمة، الخير والشر، الرحمة والعذاب).

أما في قوله تعالى: **((وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ))** (البقرة/١٨٥)، فقوله: ((ولتكملوا العدة يقرأ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيف فالحجة لمن شدد تَكْرِير فعل الصّيام فِي الشَّهر الى اتمام عدته وَالحجّة لمن خفف أَنه جعل عقد شهر رَمَضَان عقدًا وَاحِدًا))[٩٢]، يفهم من اختلاف القراءتين أنَّ كلّ قراءة تبرز قصدية مغايرة في الخطاب الإلهي، فقراءة التشديد (تكمّلوا) تسلط الضوء على الجانب العملي للصيام، حيث توحي بتدرج ذلك الفعل وتكراره في إكمال العدة، ممّا يعكس التركيز على الفعل وتحققه الخارجي. في تنقل قراءة التخفيف قصدًا مختلفًا؛ إذ تشير إلى وحدة الشهر من حيث عقد نية واحدة تغطي زمانًا واحدًا ذا طبيعة متصلة. فالقراءتان تظهران توسعة للخطاب القرآني، فالأولى تؤكد على ظاهر العمل، والثانية تؤكد على باطنه (النية)، في توافق دقيق بين الشكل والمقصد.

وقد تأتي القراءات لتوسيع الفعل زمانيًا يتجلى ذلك واضحًا في قوله تعالى: **((فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ))** (البقرة/١٨٤) قرئت (تطوع) على أنَّه فعل ماضٍ ومن قرأ (يطّوع) للدلالة على الاستقبال[٩٣]، ويظهر التحليل التداولي للقراءتين أن اختلاف زمن الفعل بين الماضي (تطوع) وبين المضارع الدال على الحال والاستقبال (يطّوع) من شأنه أن يسهم في توسيع زمان قبول التطوع بصرف النظر عن وقت إنجازه سواء أكان في الماضي أم في الحاضر أم في المستقبل، كما لا تقتصر الإشادة بمن أنجز التطوع بل يمتد التحفيز لكلّ من يتهيأ لفعل الخير. فالقراءتان اسهمتا في توسيع زمان مقبولية الفعل.

---

[٨٨] – ينظر: الحجة في القراءات السبع : ٩٦، و مجمع البيان في تفسير القرآن: ٢/ ٦٥ .

[٨٩] – ينظر : البحر المحيط في التفسير: ٢/ ٤٠٥ .

[٩٠] – ينظر : الحجة في القراءات السبع : ٩١ .

[٩١] – ينظر : مفاتيح الغيب : ٤/ ١٧٣ ، والجامع لأحكام القران: ٢/ ١٩٨ .

[٩٢] – الحجة في القراءات السبع: ٩٣ .

[٩٣] – ينظر: الحجة في القراءات السبع: ٩٠، والجامع لأحكام القرآن: ٢/١٨٣، والبحر المحيط: ٢/٦٨.

((وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ)) (البقرة/٢٢٩)، قرئت (يخافا) بفتح الياء وضمها[٩٤]، فكلُّ قراءة من القراءتين تبرز طرفًا تشاركيًا لا تبرزه أختها، فقراءة الفتح تعني أنَّ الخوف صادر من الزوجين[٩٥] وتعبر عن قدرة الزوجين على حلِّ أسباب الخلاف، أما قراءة الضم (البناء للمجهول) تعني المسؤولية المجتمعية للتعاطي مع الخلاف الأسري وضرورة الشعور بالمسؤولية والخوف بما يبيح تدخل الإمام والحاكم لحلِّ الخلاف الدائر بين طرفي العلاقة الأسرية[٩٦]، هذه القراءة تفرض مسبقًا مشروعية ذلك التدخل الخارجي ومقبوليته لحل الخلاف الدائر بين طرفي النزاع الأسري.

يبرز في قوله تعالى: ((فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)) (البقرة/٢٧٩)، قراءتان الأولى بالقصر وفتح الذال (فأذنوا)، والأخرى بالمد وكسر الذّال (فآذِنوا). ويؤسس اختلاف القراءتين لبعد تداولي دقيق في بناء الموقف الاتصالي، فقراءة القصر (فأذنوا) توجه الخطاب إلى المخاطبين بشكل مباشر، أي ((أنه أراد فاعلموا أنتُم أي كونوا على علم)) [٩٧]، فتكون الوظيفة التداولية لهذه القراءة ذات طبيعة إنذارية. في حين تجعل قراءة المد (فآذِنوا) المخاطبين وسطاء في نشر الإنذار والتحذير، أي ((أنه أراد فأعلموا غَيركُم أي اجعلوهم على علم))[٩٨]، الأمر الذي يعطي النصّ بعدًا تداوليًا أوسع؛ إذ يحول العلم الشخصي إلى موقف تبليغي، فمجموع القراءتين يغني المشهد التداولي ويكون فيه المخاطبون مُنذِرين من جهة، ومنذَرين من جهة ثانية، مما يسهم في توسيع دائرة الخطاب القرآني وتعددية مقاصده.

أما قوله تَعَالى: ((لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لم تمَسُّوهُنَّ)) (البقرة/٢٣٦) فتقرأ بضم التَّاء وإثبات الألف بعد الميم (تماسوهن)، وبفتح التَّاء وطرح الألف (تمسوهنَّ)[٩٩]، لما كانت الآية المباركة في سياق الحديث عن (الطلاق) وهو موضوع عام كثير الوقوع متباين الأحوال جاءت القراءتان لتجمع بين طياتها الأحوال المتطرفة لذلك الموضوع ليكون ما بينهما تحصيلًا للحاصل، فالمتعة ثابت على من تحقق له المس المجرد، كما أنّه ثابت على المتماسين بالممارسة الزوجية لأنَّ الزوجين يماس أحدهما الآخر[١٠٠]، فكلا القراءتين تتكاملان تداوليًا لتغطية جميع أشكال الاتصال من المس الخفيف غير المقصود إلى الفعل الكامل المقصود، ممّا يجعل الخطاب القرآني أوسع وأدق في تناول الأحوال المختلفة للناس مع ثبات الحكم لكلّ تلك الأحوال.

تعد القراءات القرآنية بابًا من أبوب التعدد التداولي في الخطاب؛ إذ يتسع بوساطتها المجال للفهم والتأويل، ومن أبرز ذلك ما تتضمنه بعض القراءات من تغاير في إسناد الفعل أو جهته، بحيث يتحول الفاعل إلى مفعول به، ممّا يفضي إلى تعدد في الجهات التي يشملها الحكم أو النفي أو التحذير، الأمر الذي يؤدي إلى توسيع دائرة الخطاب بتحوله من المعنى الواحد إلى المعاني المتعددة شاملًا أطرافًا وأحكامًا أخرى، كما هو الحال في قوله تعالى: ((وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ)) (البقرة/٤٨) قرئت

---

[٩٤] – ينظر: الحجة في القراءات السبع: ١٣٥، وينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٨٤/٢ .
[٩٥] – ينظر : مفاتيح الغيب : ٦/ ٤٤٦ .
[٩٦] – ينظر : فتح القدير : ١/ ٢٧٤ .
[٩٧] – الحجة في القراءات السبع: ١٠٣ .
[٩٨] – الحجة في القراءات السبع: ١٠٣ .
[٩٩] – ينظر : الحجة في القراءات السبع: ٩٧، و ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٩٩/٢.
[١٠٠] – ينظر : التحرير والتنوير: ٢/ ٤٦١ .

(يُقبل وتُقبل)[١٠١]، وكلّ قراءة جاءت لتركز على زاوية مختلفة من زوايا الخطاب وتدل على مقصدية مختلفة لا تدل عليها القراءة الثانية، فالمعنى على قراءة (الياء) يكون نفيًا لقبول الشفاعة، أي لا يقبل من تلك النفس شفاعة شافع. أما قراءة (التاء) فتعني نفيًا لشفاعتها هي، أي أنها لو شفعتْ لما قبلت منها تلك الشفاعة[١٠٢]، ويكون المعنى في مجموع القراءتين أنَّها لا تشفع لغيرها، ولا يشفع لها أحد.

وتكشف بعض القراءات الفرشية عن أبعاد تداولية تتجاوز المعنى المباشر إلى ما يُعرف بتوسيع بنية الخطاب ومجاله التداولي، سواء من حيث المشاركين في الحدث الكلامي أو مراحل انتقال القول، أو الجهات المعنية بالفعل الكلامي، ففي قوله تعالى: ((**مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)) (البقرة/١٠٦)، قرئت (ننسخ) قرئت بضم النون وفتحها[١٠٣]، وقراءة الفتح (نَنسَخ) تعني أنَّ الفعل مأخوذ من (نَسَخَ) بمعنى إزالة الحكم واللفظ أو إزالة أحدهما دون الآخر[١٠٤]، أما قراءة الضم تعني أنَّه (أنسخ) والهمزة فيه للتعدية و((انساخها هو الأمر بنسخها وهو ان يأمر جبريل(ع) بأن يجعلها منسوخة بالإعلام بنسخها))[١٠٥]، وقيل أنَّ المأمور بالآية هو النبي محمد (ص وآله) وليس جبريل (ع)[١٠٦]، وكلُّ قراءة من القراءتين تنظر للحدث من منظورها الخاص، فقراءة الفتح تركز على حدث النسخ وإزالة الأحكام لفظًا ومعنى أو بأحدهما دون الآخر، في حين تركز قراءة الضم على تراتبية حدث الانساخ فالله يأمر جبرائيل، وجبرائيل ينقل الأمر للنبي (ص وآله) والنبي يأمر المؤمنين بنسخها. وهكذا يتجاوز النسخ من كونه فعلًا تنفيذيًا إلى كونه سلسلة من التبليغات متعددة الطبقات، تتفاوت فيها درجات الفهم والمسؤولية والانقياد.

يتبين من هذا المبحث أنَّ القراءات الفرشية لا تسهم فقط في اغناء البنية الدلالية للنصّ، بل تتعدى ذلك نحو بناء خطاب أكثر انفتاحًا وشمولًا، فالاختلاف القرائي يأتي أحيانًا ليرفع التقييد، أو يحول الخطاب من الخاص إلى العام، ومن المباشر إلى غير المباشر، بما يمنح النصّ قدرة على الامتداد عبر الزمان والمكان والثقافات.

خاتمة

خلص البحث إلى مجموعة من النتائج المهمة منها:

تظهر الدراسة أنّ القراءات الفرشية تمثل لونًا من ألوان الأعجاز القرآني، من حيث قدرتها على اغناء المعنى وتوسيع الدلالة بما ينسجم مع تنوع المخاطبين وسياقات الخطاب.

يؤدي اختلافات القراءات القرآنية إلى اختلاف الفعل اللفظي أو فعل القول، وهو أول الأفعال التي ينجزها المتكلم حين النطق بمقولة ما. الأمر الذي يؤدي إلى اختلاف في طبيعة الفعل الإنجازي –غالبا- فيغلب على بعض القراءات طابع الإخبار، وعلى الأخرى طابع الإنشاء، ليتناسب كلّ فعل من الأفعال مع صنف معين من أصناف الناس، أو ليتلاءم مع حال من أحوالهم.

---

[١٠١] – ينظر: الحجة في القراءات السبع: ٩٥ .

[١٠٢] – ينظر : مفاتيح الغيب : ٣/٤٩٥ .

[١٠٣] – ينظر : الحجة في القراءات السبع : ١١٣ .

[١٠٤] – ينظر: البحر المحيط في التفسير: ١/ ٥٤٨ .

[١٠٥] – الكشاف: ١/ ٢٠١.

[١٠٦] – ينظر : البحر المحيط في التفسير: ١/ ٥٤٨ .

إنَّ للقراءات دورًا فاعلًا في توسيع دائرة الخطاب القرآني، ممّا يمنحه قدرة على الشمول الزماني والمكاني، وليشمل الخطاب السابق واللاحق معًا.

إنَّ تنوع القراءات القرآنية ساهم في نقل تفاصيل الأخبار وتنوع الأقوال في القرآن الكريم بدقة ومرونة، بما يحفظ صدق الخبر وأمانته وإحاطته بكلّ تفاصيل الحدث.

قد يدخل العنصر الإشاري طرفًا في تغيير إنجازية الفعل الكلامي وتغير طبيعته من إخبار إلى أمر أو العكس.

تشير بعض القراءات إلى إمكان اختلاف درجات القوة الإنجازية المتضمنة في كلّ قراءة للفعل نفسه، ما بين قراءة تؤدي المعنى على سبيل الحتمية، وأخرى تؤدي المعنى على سبيل الاحتمال.

تتجاوز القراءات حدود الاختلاف في القوة الإنجازية لتتناغم كلّ منها مع سياقها المقامي الخاص بما يحفظ الوظيفة التداولية.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

الأبعاد التداولية عند الأصوليين، مدرسة النجف الحديثة أنموذجاً، فضاء ذياب غليم الحسناوي، (ط١) مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ٢٠١٦م.

إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر المؤلف: أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الغني الدمياطيّ، شهاب الدين الشهير بالبناء، المحقق: أنس مهرة، (ط٣) دار الكتب العلمية - لبنان، ٢٠٠٦م - ١٤٢٧هـ .

استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، (ط١) دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤م.

آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، الدكتور محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٢م.

البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠ه.

البرهان في علوم القرآن : المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، (ط١) دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه ، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م

بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، الدكتور فاضل صالح السامرائي، (ط٢) شركة العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة.

التبيان في تفسير القرآن، لشيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ط١) مؤسسة النشر الإسلامي، قم، إيران، ١٤١٧ه.

التحرير والتنوير، الإمام الشيخ الطاهر بن عاشور، (د ط) الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

التداولية اليوم علم جديد في التواصل، آن روبول وجاك موشلار، ترجمة، الدكتور سيف الدين دغفوس والدكتور محمد الشيباني، (ط١) المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٣م.

التداولية في الدراسات النحوية، عبد الله جاد الكريم، (ط١) مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤٣٥ه – ٢٠١٤ م.

التداولية من أوستين إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، ترجمة، صابر الحباشة، (ط١) دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، ٢٠٠٧م.

التداولية والشعر قراءة في شعر المديح في العصر العباسي، الدكتور عبد الله بيرم، (ط١) دار مجدلاوي، عمان، ٢٠١٣ – ٢٠١٤م.

التداولية، جورج يول، ترجمة الدكتور قصي العتابي، (ط١) دار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ١٤٣١ه، ٢٠١٠م.
تعديل القوة الإنجازية تعديل دراسة في التحليل التداولي للخطاب، محمد العبد، مجلة فصول، مصر، العدد ٦٥، شتاء، ٢٠٠٥م.
تقريب النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، تحقيق علي عبد القدوس عثمان الوزير، (ط٢) دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٣٤ه – ٢٠١٣م.
الجامع لأحكام القرآن : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، المحقق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.
الحجة في القراءات السبع عبد الرحمن بن محمد، أبو زرعة ابن زنجلة، تحقيق: سعيد الأفغاني، دار الرسالة.
روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، (ط١) دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥ه.
سياق الحال في الفعل الكلامي "مقاربة تداولية"، سامية بن يامنة، (أطروحة دكتوراه)، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، الجزائر، ١٤٣٣ه – ٢٠١٢م.
السياق وأثره في المعنى "دراسة أسلوبية"، الدكتور المهدي إبراهيم الغويل، أكاديمية الفكر الجماهيرية، بنغازي، ليبيا، ٢٠١١م.
فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الفكر، بيروت.
في تداوليات القصد، إدريس مقبول، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، المجلد (٢٨) (٥)، ٢٠١٤م.
القاموس الموسوعي للتداولية، جاك موشلر – آن ريبول، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عز الدين المجدوب، دار سيناترا، تونس، ٢٠١٠م.
الكتاب، لسيبويه، تحقيق عبد السلام محمد هارون، (ط٣) مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٨ ه – ١٩٨٨ م.
الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث بيروت.
الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق الدكتور محيي الدين رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق.
مجمع البيان في تفسير القرآن، أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، (ط١) دار العلوم، لبنان، ١٤٢٦ه – ٢٠٠٥م.
محاضرات في فلسفة اللغة، الدكتور عادل فاخوري، (ط١) دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠١٣م.
مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، (ط٣) دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠ه.
المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو، ترجمة الدكتور سعيد علوش، (ط١) مركز الإنماء القومي، ١٩٨٧م.
منجد المقرئين ومرشد الطالبين : المؤلف: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى: ٨٣٣هـ) ، (ط١) دار الكتب العلمية، ١٤٢٠هـ -١٩٩٩م.

النشر في القراءات العشر: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف، المحقق : علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى.
نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، طالب سيد هاشم الطبطبائي، مطبوعات جامعة الكويت، الكويت ١٩٩٤م.
نظرية الفعل الكلامي "بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي والإسلامي، هشام إبراهيم عبد الله الخليفة، مكتبة لبنان ناشرون.
الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع، تأليف عبد الفتاح عبد الغني القاضي، (ط١) مكتبة السوادي للتوزيع، جدة، ١٤٢٠ ه – ١٩٩٩م .